موعظة شهر ايرود

دنا المساء فهزّني طرب الربيع ورغبتُ في الخروج والتجوال لاشارك الطبيعة في افراحها . كأني حسبتُ جدران البيت تقطع الصلة بيني وبينها ، وتشعرني بان الكون حرمني من مشاركة موجوداته الهاتفات بارج ايّار بين الغصون وزينة الارض العروس

خرجتُ وليس لي وجهة معينة اطلبُ بداهةً احياء قلما اخترقتها . فسرتُ في شارع قصير على مقربة من شارعنا كأن نفسي المتيقظة لبت داعي الاخضرين المحيطين بهاتيك المنازل : أخضر يبسطُ على ارض الحديقة طنفسة مخملية ، واخضر يتعالى قليلاً فيعكس طيف افنانه على وجه الجدران الشاهقات

سرتُ متمهّلةً انتقل من رصيف الى رصيف ، والشمس آخذة في التحدّر وقد انكسرتْ حدّتها ولطف نورها حتى بدت الاشعةُ حزينةً عما مازجها من معاني الفراق . وما كان اندر المركبات والسيارات في ذلك المسرح ، والمارّون يتبادلون نظرةً كأنهم لقلتهم يقولون « أرأيت ؟ لا أحد إلاّ نا ! »

أتيتُ على آخر الشارع فنفذتُ منهُ الى شارع رحب طويل هو شارع ماريت باشا المؤدّي الى دار الآثار المصرية . تخطرتُ مترددةً بين العودة من حيث أتيتُ ومتابعة المسير الى الامام . واذا بناقوس يدقُ على مقربة مني ولرنينهِ ازاء الغروب دويٌ متوسل حنان . فالتفتُ الى جهتهِ فوجدتني امام كنيسة صغيرة رأيتها مراراً ولم ادخلها مرّة

وقفت اتأمل واجهة الكنيسة وادير نظري في الحديقة التي تتقدّمها وكانت تجتازها بعض السيدات . فلما توارين وراء باب الكنيسة تبادر اليّ انهُ يُحتفل بصلاة الشهر المريمي في هذه الساعة من كل يوم على طول الشهر ، لان ايّار (مايو) مكرّس للعذراء . ولم يعد ينقضي الآن أرى فتاةً تسير مخطوات عصفور في ثوب ازرق كزرقة الاحلام وتتوارى هي ايضاً وراء باب الكنيسة لاجد مني شوقاً الى مشهد الطيا كل وتوقاً الى رائحة البخور . اضحكوا ما شئتم ، انتم الزاعمون ان الثوب المليح دعاني ، وان زيهُ البسيط وتخريعهُ الدقيق كان لهُ مع المرأة مني احاديث

اما الكنيسة فكانت مملوءة بالمصلين ولم يخلُ في مقاعدها الأ مكان واحد جثوت عنده قرب الكاهن الراكع امام المذبح يتلو المسبحة باللاتينية فيردّ عليه الجمهور بلهجة الخاشع المتهيّب

لا اعرف شيئاً اجل واسمى من الصلاة في ايّ دين من الاديان ، لانها ترفع النفس الى اعلى درجات الارتقاء ومحاولة الدنوّ من روح الحياة الكبرى . هي مناجاة العابد للمعبود ، هي شكر المخلوق للخالق واستعطافهُ لاستنزال عطاياهُ . وما اعذب هذا الاعتقاد ان في السماء هناك وراء جميع القوى والعجائب الكونية الهاً قديراً لا يقضى دونهُ امر ، لديهِ النعم يفيضها على الحاجة البشرية ، وعزة يتلاشى حيالها ضعف الانسان ، وجودٌ يعمُّ البرايا فتموج وتتنوّع وتنبض بالحياة والقوة والتحوّل

الاّ اني لا استحسنُ الصلاة الآلية المستطردة على وتيرة واحدة دون ان يشترك فيها العقل والقلب ، — الصلاة المتعاقبة الفاظها بين الشفاه والاصابع تعدُّ منها ارقاماً معينة — لانها تبعث الى التنويم المغناطيسي منها الى الايقاظ الروحيّ . قد يكون هذا التأثير من تفنن الشيطان في التجربة والخداع . قاتلهُ الله ! لقد وسوس في صدري حتى شتت افكاري وحملني على احصاء الحاضرين . وكانت النتيجة اني جزمتُ بان النساء اسبق الى دخول السماء نسبةً الى عددهنّ في الكنيسة ، اذ لم يكن بين مائتي امرأة الاّ رجلان وخمسة ارباع . اما الرجلان فرجلان ، واما الخمسة الارباع فصبيان صغار خمسة جاءوا مع امهاتهم . وكم كنتُ ظالمةً في الاحصاء والحكم ذلك اني عند الخروج وجدتُ جمهور الرجال في مدخل الكنيسة يقفون هناك مراعاةً للسيدات وتكرّماً منهم لهنّ بالمقاعد

وظلّ الخناس الوسواس يجرّني لحسّن لي تفحص المعبد فتفحصتُ جدرانهُ وما قام عليها من صور وتماثيل ، وهندستهُ وما ميزها من نقوش ورموز ، وهياكلهُ وما تناسق عليها من صلبان وطاقات ازهار — تلك الازهار ذات الانحناء السريّ تتخللها شموع كأن لهيبها تذكارات لاذعة في شفق الغيبوبة والنسيان

لكلّ شيء في العالم نهاية . صمتت الاصوات فمشى الكاهن الى الدرابزون امام المذبح الكبير وبدأ موعظتهُ الايطالية . وكان يقول اشياء عادية بصوت المثبت

واشارتهُ مرتبكة كاشارات التلاميذ في حفلة توزيع الجوائز . ولكن لم يلبث ان ارتفع صوتهُ وركزت هيئتهُ واتسمت اشارتهُ ولمعت عيناهُ وهو يقول :

« الى مريم وربة هذا الشهر الجميل يجب ان تلتجىء النساء جميعاً. فالامهات يتعلمن منها التجمل بالعفات التي احاطت بها ابنها يسوع : وهي الحنان والحصافة والمحبة الصادقة التي لا زهو فيها ولا تهور . لقد كانت ، وما زالت ، وستبقى ابداً اسمى مثال للامومة القدسية ، تسير الامهات وراءها مستوحيات اساليب التربية والتهذيب

« اليها يلتجىء اليتامى الذين لا امّ لهم فيجدون في حضنها الراحة والعطف والمساعدة . اليها تلتجىء العذارى لانها ابهى مظهر للطهر والحشمة والوداعة

« اسمعن يا اخواتي يا نساء القاهرة ! ليكنّ اوجز هذه الكلمات فاقبلنها لانها خلاصة اعتقادي . تعلمن الحشمة من مريم انتنّ بنات اليوم الناسيات . ما وقار المرأة واحترام الناس لها الاّ نتيجة حشمتها وعفتها . ! قد تكنّ عفيفات طاهرات في قلوبكنّ ولكن كيف يصدقكنّ الرائي ويحسن الظن بكنّ وانتن تسرن في الشوارع بهذه الازياء الحديثة التي تعرّي منكن العنق والنحر والذراعين ؟ هذه الازياء الشريرة باقسمها الشفافة ، الشريرة بقصرها وضيقها ، التي تعدم لابستها كل هيبة وجلال

« أللحبّ تتزينّ ؟ اللحبّ تهن في هذا التهتك ؟ ألا فاعلمن إذاً ان حبّ الرجل لا يكتسب بالتهتك بل بالتكتم . الرجل محارب من طبعه يهوى الفتوحات ويستميت في الاخضاع بينما هو يعرض عن كل ما لا يكلفهُ ألماً وكداً . فلماذا يسعى اليكنّ وانتنّ تخطرنَ في كل مكان ؟

« ام انتنّ تتزينّ للجمال ؟ ولكن هل الجمال في الزينة والاناقة وملاحة الوجه وتناسب الاعضاء ؟ كلاّ ! كم من امرأة تُحسب آية تناسب وملاحة وهي مع ذلك غير جميلة إذا سرّ امرؤ بمشاهدتها مرةً او مرات فهو لا يتمنى مجالستها ويملّ كلامها ومخافتها بعد ان يعرفها قليلاً ، إذ يرى ان احسن ما فيها هو هذا الشيء الخارجي الذي لا يكفي لامتلاك القلوب واكتساب الارواح

« ألا فاعلمن ان النساء اللاتي كن ذوات أثر في أعاظم الرجال وذوات سلطة وشوكة حزنَ جمالاً أعظم من هذا الجمال الخسيس وأبقى . لقد كان لهنّ جمال النفس الذي تزيدهُ الايام رونقاً بينما هي تحتُّ القشرة هنا وهناك وتوسعها كل

ساعة ذبولاً وإتلافاً . كان لهن جمال العقل وجمال القلب ، وجمال حسن التصرف ، وجمال اللطف الصحيح ، وجمال المحبة الطاهرة العميقة المستخفة بالمظاهر التي لا يغرها جمال الشباب وجمال الاناقة وجمال الازياء

« أتعلمن ما هو الشباب والجمال ؟ هما حديقة تملأها الازهار النضرة والعطور المنعشة ، يقف أمامها المارون معجبين . وما هو الا يوم وليلة فتثر العاصفة صارعةً اشجارها ، مبددةً ازهارها ، مبيدةً عطورها ، وتغادرها خالية الا من اكوام التراب والاغصان المكسرة . هذا ما تسمونهُ جمال الشباب أي جمال القشور . أما الجمال الآخر فهو جمال الجوهر . الآلام تطهرهُ ، والمصائب تجلوهُ ، والعواطف تنميهُ قوةً ونبلاً . هو الجمال الذي يبقى ناميًا مدى الحياة . هو مسعد العائلة ، هو مساعد الزوج ، هو مهذب الاطفال ، هو السلام والطهر والبركة . ولتحفظهُ المرأة . . . اسمعن ايتها السيدات . . . لتحفظ المرأة ذلك الجمال . عليها ان تكون وردةً تحيط فيها بالاشواك . . . . »

انتهت الوعظة . فعزف الارغن الشجي وابتدأ الرياح فاشترك الجميع في الترتيل وتصاعدت الشعائر نحو الله منحنةً انغاماً ومحترقة امام هيكلهِ بخوراً

وعند خروجي من الكنيسة كان الظلام يغمر المدينة ومضيئو المصابيح يجرون في الشارع حاملين المشاعل . فوقف أحدهم يتفرج على السيدات وهو يفترّ عن اسنانهِ البيضاء ، ويثني على كل مارة الثناء المعتاد قائلاً بلهجتهِ المصرية النغمة « انت يا واد يا حلو ! انت يالي زيّ الباشا ! انت يا واد يا حلاوة »

هذه هي موعظة شهر الورود : على المرأة ان تكون وردةً تحيط بها الاشواك . وما « اشواك » الوردة النسائية غير التكتم والحشمة والطهارة كما قال ذلك القس . فان عجبتم اليوم لهذا الكم الطويل الطويل الذي يتعثر قلمي بأذياله فاعلموا ان سببهُ موعظة شهر الورود . وان أعرضتُ عن ذلك الثوب الشفاف الساحر واستبدلتهُ بهذا الشبيه بثوب ايبا الواعظ لكثافتهِ فا سببهُ الا موعظة شهر الورود . وان غادرتكم الآن ، فا ذلك الا لاني أريد اسمع موعظة شهر الورود مرةً اخرى : —

كتبت في ٢٨ مايو الماضي (مي)